من تراب الطريق (٣٢٠) إيش تطلبى يا نفسى ؟! (*)

كلما دهمتنى الأحزان ، أو راودتنى الرغبة فى التأمل، أو تطلعت إلى الأشواق ، تناولت رباعيات شاعرنا الفنان العبقرى الفذ صلاح جاهين. اليوم تناولتها فجرت عيناى عفوا بلا ترتيب مقصود على رباعية فيها يقول :

إيش تطلبى يا نفسى فوق كلّ ده حظك بيضحك وانتى متنكده

ردت قالت لى النفس : قول للبشر ما يبصوليش بعيون حزينة كده

عجبى !

تأملت فى دنياى ، جريا وراء صلاح جاهين ، فوجدت أنها أعطتنى حياة حافلة رضية بها كل ما تمنيته وزيادة ، ومع ذلك لا يفارقنى حزن دفين ، الغريب أننى لا أشكو من هم شخصى ، وأتقبل ما يصادفنى من معضلات أو إخفاقات أو مشاكل أو صدود أو خيانات بفهم مدرك لطبيعة الحياة ، وطبيعة الناس .. فالإنسان هلوع يجزع للشر ومنوع للخير، وفيه قال القرآن المجيد : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١] .. وأعرف مما دلنا عليه القرآن أن النفوس مفطورة على الخير والشر : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

(*) المال ١/ ٩/ ٢٠٠٩

وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧] وأعرف أن الخيانة وقلة الوفاء واردة لا غرابة أن يتردى فيها آدمى ، حتى قالوا فى الحكم والأمثال : «إن أنت أكرمت الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا» !! .. كل ذلك لا غرابة ولا مفاجأة فيه .. ألم يقل القرآن الحكيم : ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]!

لعلّى ببصيص من الحكمة أدرك هذا كله ، ولا أتوقع كثيرا من الناس تُحمد عاقبته ولو بعد طول انتظار ، فلا أتوقع الخير لزاما . ولا آمن الشر أو الخيانة دواما ، ويملؤنى رضاء محمود عن النفس عملا بحكمة أن قيمتك فى نفسك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك أو مرادك !

فلماذا هذا الحزن الدفين ، ولماذا يقول جاهين لنفسه : «حظك بيضحك وانتى متنكدة» !!

هل صحيح ما يورى به ختام الرباعية ، أن الحزن صدى عام متفاعل من عيون تبادلت النظر والانفعال بالأحزان .. ظنى أن الحزن صار كامنا فى نفوس المصريين .. لست الحزين الوحيد ! . مالك البيت يعتريه هم وحزن مقيم حين يحس بأن داره قد سُلبت منه ، وبأنه بات غريبا فيها ، لا يحس بإحساس صاحب الدار ، ولا بحقه ولا بحريته وإرادته وقدرته على أن يتمتع بكينونته ويمارس حقوقه فيها !

المشاهد الجارية فى مصر فصلت فصلا يكاد يكون تاما ، بين المتصرفين المهيمنين المسيطرين على زمام الأمور ، وبين جمهور المشاهدين الذى لم يعد له حول ولا قوة فيما يراه يجرى فى بيته أقصد وطنه .. دون أن يكون له وزن أو رأى أو دور فيما يصير ويتراكم ولا يرتضيه الناس !!

لا أدرى هل الحل أن أقاطع الصحف ووسائل البث المرئى والمسموع لأعزل نفسى عن المشاهد الموجعة التى جعلت تتراكم كل يوم دون حل ، بل دون أن يأبه بها أحد يفكر ويزن ويدرك أن جريان الأمور على هذا الحال سوف يكون من المُحال ؟!

حتى احتفالاتنا بالشهر الكريم ، جمحت بعيدا عن روحه وعن كل معانيه ، وصارت سوقًا لكل أنواع اللغو والتفاهة ، ومجالا للتسابق فى سفاهات ما عاد العاقل قادرًا على متابعتها أو السكوت عنها دون أن ينشق الصدر !

وجدتنى أعود إلى جاهين .. لم أعد أستطيع أن أقتلع نفسى من الأحزان التى صارت إليها الأحوال فى بلادى !!

*****